عمر أن السودان في ظل الحكم المصري

على عهد محمد علي [1]

لعبد الرحمن بك الرافعي

تأسيس المدن

كان تأسيس المدن من اول ما عنى به الحكم المصري في السودان بعد الفتح فأنشأ مدناً زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم في انحائه

الخرطوم يقول المسيو ديوران في كتابه [2] ان المصريين لما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة مثل بربر او سنار او الابيض عاصمة لاملاكهم، بل انشأوا عاصمة جديدة وهي (الخرطوم)، ولم يكن في مكانها قبل الفتح المصري سوى محطة صغيرة للصيادين، ففي سنة ١٨٢٢ اسس بها معسكر ثابت للجنود، وفي سنة ١٨٣٠ اتخذها خورشد باشا حكمدار السودان مقراً للحكم، فصارت الخرطوم من ذلك الحين عاصمة السودان، وقد اختار لها المصريون هذا الموقع لاهميته حيث يلتقي النيل الازرق بالنيل الابيض وسميت الخرطوم لان ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل، قال وقد اقيمت فيها المباني والعمائر منذ انشائها، واهمها سراي الحكومة وكانت مبنية بالطوب الاحمر، ومؤلفة من دورين، وكان منظرها فخماً. وسراي مديرية الخرطوم مقر مدير المديرية والموظفين، ومسجدان احدهما كبير بناه خورشد باشا، والآخر صغير اقيم من بعده، ودار لاحدى البعثات الدينية المسيحية انشئت سنة ١٨٤٨ اي في اواخر عهد محمد علي [3] وانشئت بها ايضاً ثكنة كبيرة للجنود شرقي المدينة، ومستشفى [4] ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش، ومخازن للمؤن والمهمات، ثم ترسانة كبيرة كانت تشمل مسكاً للحديد ومعملاً للنجارة، وفيها بنيت السفن النيلية التي اخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل، وبتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن. وقد اكسب المدينة موقعها على النيل روعة وجمالاً، وزادتها الحدائق التي انشأها المصريون حواليها رونقاً ونضرة وكانت هذه الحدائق تشغل مساحات واسعة من الاراضي كما انها موضع عناية القائمين بها، ولها منظر

---

(١) جانب من فصل نفيس في الجزء الثالث من كتاب تاريخ الحركة القومية الذي ينتظر ظهوره في اواخر هذه السنة (٢) السودان المصري في عهد محمد علي ص ١١٢ (٣) هي التي اتخذها غردون باشا مستودعاً للذخائر في اثناء حصار المهدي للخرطوم (٤) ذكره ملجان ج ٣ ص ٤٩٦

بديع ، وكان معظمها يحاذي النيل الازرق ولا يفصلها عنه الا رصيف ضيق ، وفيها كل ما تنبت الارض من الخضر والتين والبرتقال والليمون والموز والنخيل والدوم ، ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور في نفوس القادمين [1]

وبعد ان اسست المدينة صارت ملتقى المتاجر القادمة من انحاء السودان وباطن افريقية او الواردة اليها من مصر والخارج ، فازدهر العمران فيها ، وصارت محطة من اعظم المدن التجارية في افريقية كما انها صارت مركزاً للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية ، ومرسى للسفن النيلية التي تتنقل في انحاء النيل الازرق والنيل الابيض . وتزايد مع الزمن عدد سكانها ، فقد جاءها الناس من مختلف انحاء السودان كسنار وبربر ودنقله وشندى وغيرها وقدموا اليها للتاجرة ، واقام فيها الموظفون ورجال الجهادية ، فبلغ عدد سكانها في عصر محمد علي ثلاثين الف نسمة كما قدرهم المسيو مانجان في كتابه [2] واستمر عددهم يطرد في عهد خلفائه ، فبلغوا اربعين الفاً سنة ١٨٥٤ وخمسين الفاً سنة ١٨٥٦ ، وقدرهم الكولونيل ستوارت من ٥٠ الى ٥٥ الفاً سنة ١٨٨٣ ، ثم جاءت الفتنة المهدية فدكت معالم العمران فيها وفي انحاء السودان

﴿ كسلا ﴾ وانشئت ايضاً مدينة كسلا التي صارت عاصمة اقليم التاكا من اهم اقاليم السودان بل عاصمة السودان الشرقي . ذكر ابراهيم باشا فوزي في كتابه [3] ان احمد باشا ابو ودان حكمدار السودان اسس مدينة (كسلا) وحصنها ، وقال في موضع آخر ان كسلا اسم مدينة هي عاصمة اقليم التاكا الذي بين محافظتي مصوع وسواكن وحدود الحبشة ، واغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان [4] وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة ، وفيه ابراج ، ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد علي باشا [5] . ويقول المسيو ديبريان ان مدينة كسلا انشئت في عهد احمد باشا ابو ودان وذلك انه في اثناء فتح التاكا اتخذ معسكره على نهر (الجاش) بسفح جبل كسلا ، ولما غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، فأقبل عليها الاهالي المجاورون واتخذوها موطناً لهم ، وبذلك تأسست مدينة كسلا التي صارت من اهم مدن السودان [6]

﴿ قلابات ﴾ وكذلك انشئت مدينة قلابات على النيل الازرق سنة ١٨٤٠ في اقليم سنار على بعد ٢٥ ميلاً من الرصيرص جنوباً ، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلي ، وقد بنى محمد علي باشا

(١) ديبريان : السودان المصري على عهد محمد علي ص ١٢٠ (٢) تاريخ مصر في حكم محمد علي جزء ٣ ص ١٠٨ (٣) السودان بين يدي غوردون وكتشنر جزء ١ ص ٦٥
(٤) وضع نوزي باشا كتابه بعد استرجاع السودان الاخير وطبع سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١م)
(٥) جزء ٢ ص ٨٦ (٦) كتاب السودان في عهد محمد علي ص ١٠٩

على نحو خمسة امیال منهاجنوباً قصراً ومعملاً لاستخراج النحب بقيت آثارها الى عصرنا الحاضر

توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف الكتاب الافرنج في تقديرهم للحكم المصري في السودان على عهد محمد علي فانهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل في بسط رواق الامن في اصقاعه النائية، كانت الرحلة اليه قبل الفتح المصري محفوفة بالاخطار إذ كانت الطرق مقطوعة، والامن فيها مضطرب، وسلطة الرؤساء ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف في كل وقت للسلب والنهب، ولكن الحكم المصري قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد وبسط رواق الامن عليها

قال المسيو دبيران في هذا الصدد: ان ما قام به محمد علي من بسط رواق الامن في مصر هو من اجلّ اعماله كما يرى المستر بورنج في تقريره عن مصر، وهذا الرأي يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد علي، فحيثما بسط نفوذه وحكمه نهض بالامن ووطد دعائمه وصانه بعين رعايته، وعلى الضدّ اذا تقلص نفوذه عادت البلاد الى الفوضى واختل ميزان الأمن فيها، خذ لذلك مثلاً انه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة ١٨٤١ واستردها سلطان تركيا شعر التجار بانهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك، وكذلك لما جلا ابراهيم باشا عن سورية اضطرب فيها حبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين، اما البلاد التي يسود فيها حكم محمد علي فان الانسان يأمن على نفسه ان يذهب الى اي ناحية يها. ويقول الكونت بنديتي Benedetti قنصل فرنسا في مصر ان الاهالي والاجانب على السواء يستطيعون ان يذهبوا الى شاءوا في البلاد التي يحكمها محمد علي سواء أكان ذلك في وادي النيل الى اقاصي حدود السودان أم في سورية وجزيرة العرب، فان صرامة العدل الذي اقام ميزانه في كل ناحية لا تقبل مواددة ولا ضعفاً، فالسودان قد سادهُ الأمن كما ساد غيرهُ من البلاد التي حكمها. ففي كردفان مثلاً حيث لم يكن اي تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفرداً استطاع الرحالة بالم Pallme ان يجتاز البلاد من غير أن يصحبهُ إلاّ خادم واحد، ولم يقع عليه اي اعتداء او اذى، وكذلك ساح فيه الرحالة كوتشي Kotschy مطمئناً سنة ١٨٣٩، وساح الامير الالماني بكلر مسكو Muskau في السودان الى الخرطوم دون ان يناله سوء، وجاءت عائلة المسيو ملي Melly الى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت في ربوع ايطاليا[1]. وقد كان من نتائج بسط الامن في السودان وتأمين طرقه نشاط المعاملات التجارية في انحائه وبينهُ وبين مصر وباطن افريقية

ومن نتائجه تنظيم البريد، وقد جعلت الخرطوم مركزاً لهُ، وكان ينقل في السفن ثم يحمل على الهجن فيرسل الى مصر وجميع مديريات السودان، ولهُ في الطريق محطات

(١) دبيران ص ٢١٥

تستريح فيها الهجن وتبدل ، وكانت الرسائل تصل من مصر الى الخرطوم مرتين في الشهر وتقطع المسافة بينهما في خمسة وعشرين او ثمانية وعشرين يوماً ، وكان البريد يروح ويغدو ويجتاز تلك المراحل الشاسعة دون أن تنقطع عليه الرحلة . قال المسيو جومار في هذا الصدد : « من ذا الذي كان يظن قبل اربعين عاماً بل قبل خمسة عشر عاماً فقط ان تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الابيض الى ضفاف السين (النهر الذي يمرُّ بباريس) في اثنين وثلاثين يوماً ، وتصلنا من قزنفور (جنوبي قازوغلي) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء في خمسين يوماً ؟ »[1]

الزراعات واعمال العمران الاخرى

وادخل المصريون في السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر وغرسوا فيه اشجار الفاكهة المختلفة انواعها كالبرتقال والليمون والرمان والعنب ، ونسقوا الحدائق الغناء

قال الكولونل ستوارت Stuart في هذا الصدد « ان المصري يميل بطبعه ميلاً شديداً الى الزراعة ، ففي السودان ، وفي اي مكان يعسكر الجنود المصريون ، لا يمضي على اقامتهم ستة اشهر حتى يكون من المحقق ان ينبت فيه الزرع والخضر » وقد أمر محمد علي باحتفار الآبار في الطريق بين كروسكو وابو حمد ، وهو طريق شاق يخترق صحراء النوبة ويجتازه المسافر في تسعة ايام ، فأمر باصلاحه وحفر الآبار فيه تسهيلاً للمواصلات بين مصر والسودان

الحلات والبعثات الجغرافية

ان للفتح المصري فضلاً على العلم والعمران بما شجع العلماء ورواد الكشف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف اصقاع السودان النائية ، وخاصة منابع النيل ، وقد كان لمحمد علي عناية كبيرة بتعضيد الاكتشاف وتشجيع الباحثين والعلماء على الرحلة اليها ، وشملهم برعاية الحكومة وعهد الى جنده في حمايتهم في رحلاتهم ، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا أن يسيروا خطوة في تلك الجهات ، وقد صارت مدينة الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية التي صارت منها لاكتشاف منابع النيل واواسط افريقية ، ولعلك تلحظ دلائل عناية محمد علي بأعمال الكشف والتنقيب مما رأيته من اصطحاب ابنه اسماعيل باشا بعض المهندسين مثل المسيو فريدريك كايو اثناء فتح السودان كما تقدم بيانه ، ومن ان محمد علي ذاته قد رحل الى السودان يجوب انحاءه ويتفقد مقاطعاته ، وقد اصطحب في رحلته بعض المهندسين والباحثين ، ثم انهُ لما عاد من رحلته تولى بنفسه تنظيم البعثات والحلات الجغرافية البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل ، فللحكم المصري في السودان فضل كبير على الاكتشافات الجغرافية التي تمت في عهده وبارادته ، وهذه الاكتشافات ذاتها قد مهدت

(١) ما نجان الجزء الثالث ص ٤٨١

السبيل للرحلات التي جاءت من بعده الى ان تم اكتشاف منابع النيل بأكملها ، ولئن كان تمام اكتشافها في سنة ١٨٥٨ و١٨٦٠ و١٨٦٢ حينما انتهى الرحالتان (سبيك) و(جرانت) الى بحيرة فكتوريا نيانزا وشلالات ريبون ، فلا نزاع ان الرحلات والتجريدات في عهد محمد علي قد عبّدت الطريق للمكتشفين واثارت لهم السُّبل وفتحت بلاداً ومناطق لم يكن في مقدورهم ان يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصري رواق الأمن في انحائها ، فالفتح المصري فضلاً عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية ، وقد كان العامل الاول في الرحلات التي تمت في عهد محمد علي اتجاه فكره وفكر أبنائه الى اكتشاف منابعه التي كانت الى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافية

قال المسيو ديهيران في هذا الصدد : ان محمد علي بانفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذي كان يطمح اليه علماء الجغرافية وكافة رجال العلم في عصره

وقال عن ابراهيم باشا انه كان شديد التطلع الى تحقيق هذه الغاية ، وقد افضى ببرنامجه الى المسيو كايو حينما قابله يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٢١ فقال له « اننا سنكشف النيل الابيض في حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التي تستطيع ان تمضي في النهر بسهولة دون ان تعترضها الشلالات ، وسنكون وجهة هذه البعثة النيلية ان تتحدر في النهر وروافده حتى تصل الى منابعه » . وكان اسماعيل باشا بن محمد علي يطمح ايضاً الى ما كان يفكر فيه أخوه ابراهيم ، فقد قال للمسيو كايو حينما استأذنه في العودة الى مصر (١٨ فبراير سنة ١٨٢٢) : « اذا ذهبت الى فرنسا فاشر ما وصلت اليه من المعلومات ، ثم عد الى مصر فانك ستجد أني لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التي وصلنا اليها ، بل سنبذل جهوداً اخرى ، وسأصحبك بنفسي الى منابع النيل الابيض »

وقد شجع محمد علي الرحلات الجغرافية في حوض النيل من يوم ان بسط نفوذه في السودان ، فساح فيه الرحالتان هاي Hay وهوشت Hocht ووصلا سنة ١٨٢٤ الى ما يلي رأس الخرطوم جنوباً ، وفي سنة ١٨٢٧ انحدر المسيو لنان دي بلفون (لنان باشا) في النيل الى ما يلي الخرطوم ، وفيما بين سنة ١٨٢٨ و١٨٣١ ساح فيه ابراهيم كاشف ونزل النيل الابيض ووصل الى بلاد الشلوك والدنكا قريباً من بحر الغزال

ولما ساح محمد علي في السودان كان معتزماً ان ينفذ الحملات والتجريدات لاكتشاف منابع النيل الابيض ، فعهد بهذه المهمة الى البكباشي سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب . فاضطلع سليم قبطان بهذه المهمة ، وقام بثلاث حملات متعاقبة كانت موضع اعجاب علماء الجغرافية والرواد